أسرى الأمل: تخيُّل العالم الجديد الذي تبنيه فلسطين

نورا عريقات وجون رينولدز
مواجهة الصهيونية: نزع الاستعمار عن فلسطين وبناء العالم من جديد
شيكاغو: هيماركت بوكس، 2026
288 صفحة (بالإنجليزية)

قراءة: رنا بركات

هزَّ انفجار هائل في مدينة غزة مدخل مستشفى الأهلي (المعمداني) في 17 تشرين الأول/ أكتوبر 2023، وكان الجيش الصهيوني قد فتح باباً لنهاية العالم من عشرة أيام قبل هذا التاريخ. وعلى الرغم من ذلك، فقد أصابت القنابل في ذلك المساء الكارثي الجميع بالصدمة. كان الهدف من القوة الهائلة للانفجارات، والكارثة الإنسانية التي خلَّفتها، والفعل الوحشي المتمثِّل في مهاجمة مكان للعلاج واللجوء، هو إحداث صدمة لدى الفلسطينيين، حتى وإن كان "السيناريو" الصهيوني قد أصبح، بحلول سنة 2023، مألوفاً ومتكرراً على امتداد أكثر من قرن من العنف الصهيوني، الذي أعقبه ما يتوافق مع السيناريو نفسه: الإنكار، وإلقاء اللوم، والتعتيم، المصحوب بخطاب مُعدّ سلفاً عن الضحية والأمن، وما يرافق ذلك دائماً من الإفلات من العقاب أو المساءلة.

كان جو بايدن، الذي كان آنذاك رئيس آلة الحرب الإمبريالية الأمريكية، في طريقه إلى دولة المستوطنين عندما قصفت "إسرائيل" المستشفى. وفي اليوم التالي، جلس بايدن، الذي يعلن عن نفسه صهيونياً ملتزماً، إلى جانب نظيره مجرم الحرب-المتوحش، وأعلن بتصريحٍ سيئ الصيت أن "فريقهم وليس فريقكم" هو الذي يقف وراء الانفجارات. وبطريقةٍ وحشية ومتقنة التوقيت، ألقيا اللوم على الضحايا بسبب موتهم!

إن القصة السابقة لا تنحصر في 17 تشرين الأول/ أكتوبر 2023، ذلك أنها تكررت بوحشية وبلا هوادة وانتقلت من غزة إلى لبنان وإيران. ونحن نعرف أن أصداء القنابل التي استهدفت المستشفى وكل من كان بالقرب منه ستظلُّ تتردد في حلقة متكررة لا يطويها الزمن. وبعد ما يقارب ثلاث سنوات من القنابل وأصدائها، وبعد ما يقارب عقدين من حصار "القطاع"، الذي أطلق عليه المستوطنون هذه التسمية، والذي ما كان حتى لأكثر الأساطير شرَّانيةً أن تتخيَّله، وبعد أكثر من قرن من التوحش الاستعمارية الذي مورس على أرض فلسطين وشعبها، ما

تزال هذه الحلقة تتكرر، وما نزال قادرين على الشعور بالصدمة إزاء العنف الاستعماري، حتى إن قيادة العالم المتوحش أبدت صدمتها تجاه شدَّة ما حصل. وما كان من آلة الإبادة الجماعية إلا أن ترد بأن الفلسطينيين هم الذين اقترفوا هذا الفعل الشرير بحق أنفسهم. لقد ألقى الصهاينة اللوم على الفلسطينيين، وبدا أن العالم القاسي سينحاز إلى صفهم مرةً أخرى، ولكن، خلف أصوات القنابل، تردَّد إيقاع آخر.

وبحلول صباح اليوم التالي، باشرت وكالات الأنباء والمنظمات الدولية المعنية بحقوق الإنسان والتحقيق، مهمة معرفة من ارتكب هذا الفعل الشنيع، كما لو كان ذلك لغزاً داخل مشهد حملةٍ عسكرية صهيونية أخرى ضد الحياة الفلسطينية! وقيل لنا، كالعادة، إن التوثيق والعمل الجنائي يحتاجان إلى وقت وشجاعة سياسية. نعم، لقد وصلنا إلى هذه العبثية عبر قرن من تجريم المقاومة الفلسطينية ومحو الحياة الفلسطينية. وحتى في خضم الحزن، حاولت وحوش التدمير ومنطقها الاستيطاني مرة أخرى أن تفرض على الفلسطينيين عبء إثبات إبادتهم بأنفسهم، وكانت الدعاية الصهيونية شرسة بقدر ما هي شائعة. وعلى مدى الأسابيع التالية، استمرَّت التحقيقات. وبحلول كانون الأول/ ديسمبر 2023، عرفنا، من خلال أدلة دقيقة وعالية التقنية أنتجتها مؤسسة العمارة الجنائية (Forensic Architecture)، ما كنا نعرفه أصلاً: أن القنابل التي أصابت المستشفى كانت قنابل أمريكية الصنع، أطلقها الجيش الصهيوني على المستشفى. وفي غضون ذلك، وبعد ذلك أيضاً، أضحت المستشفيات وكل من بداخلها في مختلف أنحاء غزة أهدافاً دائمة، ولم تتوقَّف سلسلة القنابل والصواريخ، كما لم يتغير السيناريو الصهيوني والإمبريالي. ومع ذلك، فمن الواضح أيضاً أن عالماً جديداً آخذ في التشكُّل.

إن التحقيق في وحشية الصهاينة بوصفها فعلاً من أفعال الشجاعة، والمطالبة بإخفاق آخر محتوم في اختبار الفلسطينيين أمام سجل المستعمِر في تعريف الإنسانية، هو العالم الذي ترفضه نورا عريقات وجون رينولدز في كتابهما **مواجهة الصهيونية: نزع الاستعمار عن فلسطين وبناء العالم من جديد**.[1] فهما لا يضعان في مركز كتابهما المنطق الاستعماري لهذا العالم المتوحش، حيث يُلقى اللوم على الضحايا ثم يتمُّ إسكاتهم، ولا يتوسَّلان الدخول إلى عالم صُمِّم من أساسه لتدميرنا، وإنما يقدِّمان، بدلاً من ذلك، النضال الفلسطيني من أجل الحرية، والعالم الذي يمكن لأحلام الحرية أن تخلقه. وهما يواجهان ضجيج العالم الذي جرَّد الفلسطينيين من إنسانيتهم وعمل على تغييب فلسطين. لكنهما يتخيَّلان أيضاً الفلسطينيين وفلسطين وهما يبنيان عالماً جديداً. وبينما تخترق أصداء القنابل والصواريخ كل صفحة من صفحات هذا الكتاب، إلا أنها ليست قادرة على إسكات إيقاعات الحياة.

يشكل كتاب **مواجهة الصهيونية** جزءاً من إرث طويل من الكتابة عن فلسطين، بوصفها وسيلة للكتابة من أجل العدالة في فلسطين وخارجها. ويقرُّ المؤلِّفان بهذا الإرث ويستمدَّان المعرفة منه، إذ يؤطِّران عملهما ويؤسِّسانه على كتابات مثقفين عموميين، مثل فايز صايغ وإدوارد سعيد، إلى جانب كثيرين غيرهما. ووفقاً للمؤلِّفين "يستلهم هذا الكتاب عنوانه من هذه الأصداء المتعاقبة عبر الأجيال في النظرية الفلسطينية والنشاط السياسي، وفي التزامها المتناغم بمواجهة الصهيونية" (21). غير أن المواجهة ليست سوى جزء واحد من معادلتهما، كما يصفانها، إذ

"يتناول الكتاب خطوط الصدع هذه: بين الواقع المادي للصهيونية بوصفها مشروعاً استعمارياً وإقصائياً من جهة، والضرورة التحررية والمؤكِّدة لإنهاء الاستعمار في فلسطين من جهة أخرى" (5). وعلى امتداد ستة فصول، ومقدمة، وخاتمة، يكتبان عبر خطوط الصدع هذه ويكتبان من داخلها، متناولَين الاستعمار والعنصرية والفصل العنصري والإبادة الجماعية، في الوقت الذي يربطان فيه حكايات مناهضة الاستعمار في فلسطين والعالم الثالث بأفق نزع الاستعمار. ومن ثم، فإن المواجهة هنا هي جزء من ممارسة سياسية تأسَّست وترعرعت على أمل أن يكون هناك عالم آخر ممكن، وأن تكون التعبئة السياسية تجسيداً مستمرّاً لذلك الأمل.

وبصفتهما باحثين في الدراسات القانونية النقدية، يقترب كل من عريقات ورينولدز من عالم منظمات حقوق الإنسان الليبرالية، ومن القانون الدولي والنظام العالمي الذي تشكَّلت هذه المنظمات من خلاله، واستمدَّا منه، عبر نقدٍ مشتبك، بهدف "استكشاف حدود وإمكانات التكتيكات والحجج والمؤسسات القانونية في تفكيك الفصل العنصري 'الإسرائيلي' وإنهاء الإبادة الجماعية في غزة" (25). وبناءً على ذلك، يقرُّ المؤلِّفان بأن الكتابة في ظل الإبادة الجماعية مهمة هائلة، وهي تنتمي إلى تقليد طويل من كتابات المثقفين الفلسطينيين امتد لأكثر من قرن. وهذا الكتاب، كما يصرح المؤلِّفان بجرأة منذ بدايته، مكتوب ضمن "موقعية العالم الثالث" (26).

إن مواجهة الصهيونية هي مواجهة العالم الذي بناه الاستعمار والمستوطنون والإمبرياليون. ويمركز المؤلِّفان هذا التاريخ في سياقه، ويضعان عملهما ضمن نهاية العالم التي لا تتحمل فلسطين وحدها عبء معاناتها. ومن ثم، فإن مواجهة الصهيونية تتعلَّق بالضرورة السياسية لمواجهة قسوة العالم القديم الذي يسمح بمحو شعب ومحاولة إبادته، ويمكِّن من ذلك ويحتفي به. كما أن المواجهة مسؤولية أخلاقية وتطلُّع جماعي نحو تفكيك بُنى السلطة وأنظمتها. إن الأمل الجذري في إمكانية وجود عالم آخر هو ما يغذي هذا الكتاب. وضمن الموقعية الأممية لغسان كنفاني، يوضح المؤلِّفان أن التاريخ الإمبريالي هو أيضاً تاريخ للمقاومة، وأن مناهضة الإمبريالية مترابطة بصورة عضوية على امتداد الجغرافيات المختلفة.

تُفتتح الفصول الأولى من الكتاب بتحليل تاريخي للصهيونية بوصفها استعماراً في فلسطين، إذ "يجتمع الاستعمار والفصل العنصري والإبادة الجماعية ضمن المشروع الصهيوني في فلسطين لإنتاج نظام من القمع يقوم على الغزو والعنصرية البنيوية والاقتلاع... بما يبرهن على أن الصهيونية عملت كمبادرة استعمارية وإنتاج مشروع عنصري في آنٍ واحد" (22–23). وإن فهم الجذور الإمبريالية والعنصرية والاستعمارية للصهيونية يمثِّل بداية ضرورية في اللغة الإنجليزية. أما في اللغة العربية، وبالنسبة إلى الفلسطينيين، فيوضح المؤلِّفان أن الصهيونية لطالما فُهمت ضمن هذا الإطار. ومن ثم، فإن المواجهة تتمثَّل أيضاً في ردم الفجوة بين فلسطين باللغة الإنجليزية وفلسطين باللغة العربية. ويحضر هذا التوتر المتعلِّق باللغة والموقع بوصفهما جغرافيتين معرفيتين وثقافيتين للفكر والمعرفة في أجزاء الكتاب المختلفة. وكما جادل إدوارد سعيد في عمله التأسيسي **القضية الفلسطينية** *The Question of Palestine*، فإن الدفاع عن فلسطين في عواصم القوى الغربية كان يتطلَّب نوعاً من عملية الترجمة. لكن السؤال

يبقى: لمن نترجم؟ ومن يتلقَّى هذه الترجمة؟ وهل يمكن إصلاح العالم القديم من خلال الترجمة؟ غير أن **مواجهة الصهيونية** تعقِّد هذه العملية وتوسِّعها بالضرورة، وإن ظلَّ هذا التوتر حاضراً على امتداد الكتاب.

يضع هذا الكتاب نفسه إلى جانب الحركات والتعبئة السياسية، بصورةٍ ملحة وضرورة سياسية أعظم بكثير من ترجمة فلسطين لجمهور غربي. ويقول المؤلفان: "إن فهم طبيعة هذا النظام العنصري والاستعماري وآلياته هو نقطة انطلاق ضرورية لنسأل أنفسنا عن الشكل الذي ينبغي أن تتَّخذه النضالات المناهضة للاستعمار والفصل العنصري. وفي المحصلة، لنبدأ من ذلك في تصوُّر ما ينبغي أن يكون عليه نزع الاستعمار والتحرر في فلسطين" (32). وفي هذا السياق، يحاول كل من عريقات ورينولدز تقديم المعرفة بوصفها أداة للمواجهة والتحرر. ويحتلُّ البعد العنصري للصهيونية موقعاً مركزياً في حججهما، لأنهما يؤكِّدان أنه "مثلما خلقت الصهيونية قومية يهودية ذات سيادة جديدة، فإنها أيضاً صبغت الآخر الفلسطيني بطابع عرقي، بوصفه أدنى منزلة، ودخيلاً، وتهديداً" (41). وبدلاً من تقديم الصهيونية بوصفها استثناءً، يضع هذا الكتاب النظام الاستعماري في فلسطين ضمن الإطار الأوسع للجغرافيات الاستعمارية، مع تركيز خاص على الاستعمار في جنوب أفريقيا بالقول "إن أوجه التقارب بين الصهيونية والفصل العنصري تعكس، جزئياً، أصولهما المشتركة في بوتقة الإمبراطورية البريطانية، وأدوارهما المتكاملة في ترسيخ الإمبريالية الغربية" (49). ومن هنا تبرز سياسة الكتاب بوصفه مشروعاً من مشاريع العالم الثالث، إذ تغذي هذه الروابط حركات التضامن والنضال الجماعي.

تأسست المنظومة الاستعمارية الاستيطانية في فلسطين على نظام قانوني حاكى أنظمة أخرى في مختلف أراضي الإمبراطورية، وقد أرسيت أدوات العنف الصهيوني خلال عهد الانتداب الاستعماري البريطاني، بما في ذلك الأنظمة القانونية للسلطة. ووفقاً للمؤلفين، فـ"إن القانون العنصري في بنائه لطبقة متفوقة ذات مطالب حصرية في الدولة، والاستعماري في استخراجه ثروة شعب آخر وممتلكاته، هو تحديداً ما يميِّز الصهيونية بوصفها النظير الفكري والسياسي للفصل العنصري" (58). وعلى امتداد العقود الثلاثة من سيطرة الانتداب البريطاني، توسع النظام القانوني أيضاً إلى ما يتجاوز حدود مواد النص الأصلي لصك الانتداب، في صورة الأحكام العرفية وأنظمة الطوارئ. وكان القانون ولا يزال أداة مرنة للسلطة تُستخدم بصورة مستمرة ضدّ الحياة والمقاومة الفلسطينية.

يكشف الكتاب عن صلة الصهيونية، بين قانون عهد الانتداب والأساس القانوني لدولة المستوطنين. ويفترض كل من عريقات ورينولدز، محقَّين، أن هذه الحقيقة التاريخية الواضحة لا تحتاج إلى شرح مثقل بالتفاصيل. ويقود هذا التموضع السياسي إلى الفصول المتبقية من الكتاب، حيث تُرسم الروابط من جنوب أفريقيا إلى النضال الأسود في "جزيرة السلحفاة".

وعلى أثر المثقفين العموميين، يركِّز المؤلِّفان على فايز صايغ وتفاصيل قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 3379. وقد صدر هذا القرار في 10 تشرين الثاني/ نوفمبر 1975، وأعلن أن "الصهيونية شكل من أشكال العنصرية والتمييز العنصري". ومن خلال تناول "الصلة بين الاستعمار والعنصرية" التي يجادل بها المؤلِّفان على امتداد

الكتاب، "وصف القرار نفسه الصهيونية بأنها مماثلة لأنظمة الاستعمار والاستعمار الجديد والفصل العنصري" (70–72). ويظلُّ القرار، والوضوح الذي حقَّقه صايغ في صياغته، والسياق الذي نشأ فيه وحُشد له وصُوِّت عليه، درساً قيماً في التعبئة السياسية. "تُظهر لنا مداولات الأمم المتحدة حول الصهيونية في العام 1975 أن ما كان على المحكِّ لم يكن مجرد توصيف صحيح للأيديولوجيا والحركة الصهيونيتين في حدِّ ذاتهما. فقد كانت الخلافات والمناورات الإجرائية وقرارات التصويت أيضاً تكتيكية واستراتيجية... كاشفةً عن قصة أكثر تعقيداً للوحدة الأفرو-عربية، واستراتيجيات حركات العالم الثالث في مواجهة الهيمنة الإمبريالية، فضلاً عن المفهمة المضطربة للعرق والعنصرية نفسها" (92). هذا، ويؤسِّس المؤلِّفان حجتهما حول إنتاج الطابع العرقي والعنصرية داخل الفكر والفعل الفلسطينيين، من خلال التركيز على "مجموعة محدَّدة من التدخُّلات التي قام بها مفكرون ومنظمات فلسطينية، في المقام الأول عبر ما كتب وقيل باللغة الإنجليزية" (72)، ثم يربطان ذلك بالنضالات العالمية، بما في ذلك التحرُّكات المرتبطة بعقد الأمم المتحدة لمكافحة العنصرية والتمييز العنصري.

إن استعادة السردية التاريخية الأطول لقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 3379 توفِّر للقارئ سياقاً سياسياً وثقافياً للمناورات التي قامت بها كتلة فلسطين في المؤتمر العالمي لمناهضة العنصرية لعام 2001، الذي عُقد في ديربان، جنوب أفريقيا. ويكشف عمل الكتلة لإدراج إدانة مماثلة للصهيونية في مسودة إعلان وبرنامج عمل ديربان عن الإرث الذي امتد عبر أجيال من المثقفين الفلسطينيين (101). لكن السياسة كانت قد تغيرت بصورة جذرية حيال فلسطين عبر هذه الأجيال، إذ ترك زوال منظمة التحرير الفلسطينية الفلسطينيين دون تمثيل سياسي، لتأتي منظَّمات المجتمع المدني وتملأ هذا الفراغ في القرن الجديد. ويستمد كل من عريقات ورينولدز من الأدبيات التاريخية لهذه المرحلة الممتدَّة ليكشفا عن الاستمراريات الفكرية والسياسية بين مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية والمؤسسات المحيطة بها، وبين هذا الاعتماد المستجد على المجتمع المدني في مرحلة ما بعد أوسلو. وعلى الرغم من أنهما يعرضان هذه الأبعاد، بوصفها استمراريات، فإن تفاصيل السياسة الفلسطينية الداخلية وتباييناتها تبدو أقل وضوحاً. يمنح تقديم هذه السردية الشاملة للفكر الفلسطيني، منذ العقود الأولى من القرن الماضي وصولاً إلى القرن الجديد، القارئ فرصة لفهم السياسة الفلسطينية بوصفها استباقية، وذات سيادة فكرية، وبعيدة بوضوح عن كونها مجرد سياسة "ردِّ فعل". لكن هذه ليست القصة الوحيدة لقرن من الفكر، من الأيام الأولى لعهد الاستعمار الانتدابي البريطاني إلى منظمة التحرير الفلسطينية وتراجعها البطيء، من ذروة قدرتها التمثيلية في العام 1968 إلى التآكل البطيء والمتواصل الذي أدَّى في نهاية المطاف إلى كارثة أوسلو.

إنها قصة أطول وأكثر تعقيداً بكثير، فالسياسة الفلسطينية، في مجمل المراحل التاريخية التي يغطِّيها هذا الكتاب، لم تكن مجرد مسألة تتعلَّق بالإنجليزية أو العربية، ولم تكن في المقام الأول كذلك. وعلى الرغم من أن ظروف الشتات فرضت ذلك علينا كشعب، فإن فلسطين باللغة العربية ليست كتلة متجانسة، بل إن التكتيكات والاستراتيجيات التي يشرحها المؤلِّفان ببراعة تمتدُّ أيضاً إلى سياسات التمثيل التي غطَّت طيفاً واسعاً من المواقع والمواقف، وجميع اللغات التي استخدمها أصحابها. وقد كان الخضوع لسياسات الاعتراف ببنى النظام الإمبريالي

السائد في القرنين العشرين والحادي والعشرين ظاهرة متعدِّدة اللغات، كما كان الوقوف في تحدٍّ لهذا النظام العالمي كذلك. وكما يوضح المؤلِّفان، "فإن الانتقال من النضال المناهض للاستعمار إلى مشروع بناء الدولة قد فتَّت الشعب الفلسطيني وجعل من الأصعب إبراز الأبعاد العنصرية والاستعمارية للقمع الإسرائيلي" (102). وقد كانت لغة أوسلو لغةً للتواطؤ، ونوعاً من النسيان القسري، وهو ما شرخ جزءاً من فلسطين باللغة العربية تاركاً أصداء مستمرة. وهذا الكتاب، شأنه شأن الإرث الذي نشأ منه، يذكِّر بالمشهد السياسي الجذري الذي بناه الفلسطينيون، وينخرط فيه ويحتفي به، عبر حركات تنقَّلت بين اللغات وعبرت الجغرافيات.

إن الجسور بين الماضي والحاضر التي يرسمها هذا الكتاب تقود القارئ إلى توسيع السياقات الضيقة التي فرضها عصر أوسلو. فمنذ ما قبل ديربان، ومروراً بديربان، وما بعدها، ظلَّت آفاق التحرر حافزاً للتعبئة. ويؤكِّد المؤلِّفان على حركة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات، إلى جانب "سنوات من التنظيم الشعبي، والمناصرة القانونية وإنتاج المعرفة، [التي] ساعدت أيضاً في وضع الأساس لتجديد رابطة أخرى عابرة للحدود وحاسمة من: التضامن الأسود-الفلسطيني" (129). ومن جديد، يكشف كتاب **مواجهة الصهيونية**، بوصفه سياسة جماعية للتعبئة وبناء الحركات، عن "الطبيعة المتمأسسة في تكوين العنصرية والاستعمار" (130). ولعل هذا يقودنا إلى المناقشة المعمَّقة للتشبيهات والمقارنات، بما فيها الفصل العنصري والإبادة الجماعية.

ينسج المؤلِّفان من الصفحات الأولى للكتاب، تاريخاً ومساراً نظرياً وسياسياً يقودان القارئ إلى فهم الفصل العنصري بكونه ليس بديلاً عن فهم الاستعمار. ويقع هذا المسار في صميم حجَّة الكتاب: فمواجهة الصهيونية تعني فهم استخدامها الفصل العنصري بوصفه تقنية للسيطرة ضمن ترسانتها الأوسع من العنف الاستعماري. ومن ثم، فإن توجيه تهمة الفصل العنصري وحدها، دون وضعها في إطار الاستعمار، هو أمر خارج عن التاريخ، وقد يكون إشكالياً. وقد وضع المؤلِّفان الروابط بين جنوب أفريقيا وفلسطين في سياق موجة ارتباط منظمات حقوق الإنسان الليبرالية بالتحليل القائم على مفهوم الفصل العنصري. وبينما لا ينفيان إمكانية استخدام هذا المفهوم كأداةٍ للتعبئة، فإنهما يوضحان أيضاً حدوده الليبرالية، بالقول "إن صمت منظمات حقوق الإنسان عن الجذور الكامنة وراء الأعراض التي شخصتها بوصفها فصلاً عنصرياً يكشف عن قصة خاصة به. ويتمثَّل جزء مهم من هذه القصة في كيفية قيام القانون الدولي نفسه بتطبيع الغزو والتقسيم في سياقات مثل فلسطين، وبذات الوقت عدم امتلاكه الأدوات أو اللغة أو الاستعداد لتحدي الاستعمار الاستيطاني" (141).

إن من المهم وضع القانون في سياقه بوصفه أداة للسيطرة، لكنه أيضاً فضاء يتأثَّر بالتعبئة الجماهيرية ويمكنه أن يعكس، إن لم يكن يتبنى، سياسات التحرر. وفي هذا الصدد يقول المؤلِّفان: "بصفتنا باحثين قانونيين نعمل ضمن تقليد الدراسات القانونية النقدية والمناهضة للاستعمار، رأينا أن جزءاً من دورنا هنا يتمثَّل في إبراز بعض حالات الغياب والصمت والتناقضات في تقارير حقوق الإنسان، وكيف تعكس هذه التقارير نفسها تواطؤ القانون الدولي وصمته في عدم مواجهة الصهيونية وتطبيع الفصل العنصري 'الإسرائيلي'" (142). ويجادل المؤلِّفان بأن انتفاضة

الكرامة في العام (2021) هي المقياس الذي يستحق التتبُّع، بدلاً من مركزة الجدال حول الاكتشاف المتأخر "للفصل العنصري في فلسطين" من قبل المؤسسات الليبرالية.

ويستكمل المؤلِّفان شرحهما، بأن أي يقظات ليبرالية تحدث لدى المؤسسات والمنظمات قد كانت دائماً نتاجاً لعمل سياسي واسع، وإنتاج فكري، وتعبئة للحركات. وعلى الرغم من هذا العمل السياسي، فإن السقف المنخفض لتهمة الفصل العنصري خارج سياق الاستعمار في فلسطين، كما في أماكن أخرى، يمكن أن يُستخدم غطاءً للتعتيم على الجذور الاستعمارية للصهيونية وعلى العنف الاستعماري الاستيطاني. ولذا، فقد "فهم المثقفون والقادة السياسيون والباحثون القانونيون الأفارقة الفصل العنصري بوضوح شديد بوصفه بنية قانونية-سياسية للاستعمار، وليس شيئاً جديداً أو منفصلاً عنه... لقد فُهم الفصل العنصري إلى حدٍّ كبير ضمن الفئة نفسها التي يندرج فيها الحكم الاستعماري والاحتلال الأجنبي، بما يستلزم العلاج نفسه: التحرر الجماعي، وردّ الأراضي، والتعويضات" (144–145).

ومع ذلك، فإن المناورات القانونية، بما في ذلك كشف القيود الشديدة للمحاكم الدولية، تشكل جزءاً من تعبئة سياسية أكبر. وكما يجادل المؤلِّفان، فإن المناصرة القانونية تظل "أداة محتملة... ضمن السياق الأكبر للعلاقات بين القانون والسياسة، وبين الحركات الاجتماعية والمقاومة الشعبية والتعبئة القانونية" (159)، ذلك أن التكتيكات القانونية ليست استراتيجية سياسية، لكنها يمكن أن تخدمها. ومن هذا المنطلق، يعرض المؤلِّفان تهمة الإبادة الجماعية، ويذكِّران القارئ بمؤتمر الحقوق المدنية في "جزيرة السلحفاة"، الذي قدَّم التماساً إلى الأمم المتحدة في العام 1951 يتَّهم الولايات المتحدة بإبادة الشعب الأسود في لحظة مفصلية من تاريخ الحركات الاجتماعية (180). وعلى الصعيد العالمي وفي فلسطين، وبالإنجليزية والعربية وعبر نسيج الثقافات التي تتحدَّث لغات التحرر، فإن توجيه تهمة الإبادة الجماعية يتعلَّق بالمساءلة بقدر ما يتعلق بالالتزام ببناء عوالم جديدة. واستذكاراً لجميع التواريخ السياسية التي يتناولها المؤلِّفان في بناء فكرة واستراتيجية مواجهة الصهيونية، يتسألان: "إذا لم تكن الحرب على غزة إبادة جماعية، فما هي إذن؟ وإذا كانت محكمة العدل الدولية لا تستطيع أن تسمي الحملة [العسكرية] باسمها، فما قيمتها في العالم الذي نعيش فيه؟" (193).

لقد أصبحت فلسطين الآن، من شواطئ البحر المتوسط إلى تلال القدس، ومن النهر إلى البحر، مركز هذه المعركة العالمية. وتبعاً لذلك، يجادل المؤلِّفان بأن "إمكان نزع الاستعمار في فلسطين هو إمكان للعالم الجديد الذي نحتاج إليه لكي نبقى على قيد الحياة... إن ما يبدو نهاية للعالم هو أيضاً بداية لعالم جديد" (253–254). إن آفاق التحرر التي نسعى إليها هي الآفاق التي نعمل من أجلها، فالأمل يغذِّي العمل، والأمل هو المحرِّك الحقيقي الذي يدفعه.

لا تسعى السياسة النازعة للاستعمار إلى استعادة المستعمرة الاستيطانية أو أيٍّ من الأنظمة التي تدعمها. وهي لا تسعى إلى إصلاح القوانين التمييزية أو إلغائها قانونياً، ولا إلى إصلاح البنى التي أنتجت هذه القوانين وتحديدها. إن النكبة والنكبة المستمرة هما الأساس المفاهيمي والسياسي الذي يصف من خلاله الفلسطينيون الماضي

والحاضر. هل هذه مصطلحات قانونية؟ ليس بعد. هل ينبغي أن تكون كذلك؟ ربما. إنها مفاهيم تتحدَّى الترجمة. لكن هذا أيضاً يقع في صميم فلسطين باللغة العربية، فالأمر لا يتعلق فقط بالعودة إلى لغة ما. إنه عودة، عودة مستمرة، إلى سياسةٍ تحررية، وإن تخيُّل العودة يعني الجمع ولمَّ الشمل، ويعني جلب جميع جغرافياتنا من الشتات، داخل فلسطين وخارجها، إلى فلسطين ومعها، وبجميع اللغات التي نحملها معنا. العودة هي الإيقاع الذي لا يستسلم لضجيج العنف الإمبريالي. والعودة إلى فلسطين ليست حدثاً، لأن الانتماء لا يمكن حصره أو أسره أو تدميره. والعودة هي ثقافة اللغة، لا علم لسانيات. إن حق العودة هو بالفعل حق قانوني للاجئين الفلسطينيين، لكن عودتنا الجماعية إلى فلسطين ومع فلسطين أكبر بكثير من أي وعد قانوني غير مكتمل من عالم يتهاوى. ولذا يسأل هذا الكتاب: كيف يمكننا استخدام هذا الحق القانوني بوصفه تكتيكاً لتحقيق أحلامنا بالحرية؟ إن العودة تقع في قلب هذا الكتاب، وفي قلب أملنا الجماعي الوطني

الإحالات

الجنوب: المجلة الفلسطينية للدراسات التحررية. وبذلك، تتقدم رنا بركات بالشكر والأمل والحب لـ ياسمين قعدان على ممارسة تقريب اللغات الفلسطينية من الشتات إلى العودة المستمرة.

تمَّت هذه المراجعة على الكتاب بنسخته الإنجليزية:

Noura Erakat and John Reynolds, *Confronting Zionism: Decolonizing Palestine and Building the World Anew* (Chicago: Haymarket Books, 2026).